أيار (مايو) ١٩٤٨، عندما جلت بريطانيا عن فلسطين، كان عدد العرب في فلسطين ١٣٩٠٠٠٠ نسمة، وعدد اليهود ٦٢٩ ألف نسمة. وحسب الموسوعة البريطانية، كان عدد اليهود، في العام ١٩٤٨، بلغ ٦٥٠ ألف نسمة، وهاجر اليها بين ١٩٤٨ و١٩٧٠ حوالى ١٣٠٠٠٠٠ نسمة، منهم ٢٠٠ ألف قاموا بهجرة معاكسة؛ كذلك حوالى ٤٦ بالمئة من اليهود ولدوا في اسرائيل، وحوالى ٢٧ بالمئة من أوروبا أو اميركا، وحوالى ١٤ بالمئة في افريقيا، وحوالى ١٢ بالمئة من مناطق أخرى(١٢).

ان الهجرة المكثّفة الى فلسطين كانت، ولا تزال، عملية استعمار استيطاني من النوع الذي جرى في القارة الاميركية، أو في جنوب افريقيا، أو في استراليا؛ ومن السخف، والشذوذ، ان يجرى ذلك في القرن العشرين. ولكنه، جرى باتفاق دولي، ولعلّه يجرى، الآن، التوسّع فيه باتفاق دولي أيضاً!

لم تكن للاتحاد السوفياتي، مطلقاً، مصلحة، لا سابقاً ولا لاحقاً، في المساعدة على هذا الاستعمار الاستيطاني. ان اسرائيل، ثمرة هذا الاستعمار، بقيت، منذ نشوئها، حربة موجّهة ضد الاتحاد السوفياتي. كذلك هو الحال بالنسبة الى الصهيونية الدولية. أمر طبيعي؛ لأن القيادة الصهيونية والادارات الاسرائيلية، الطائفية ـ الشوفينية والعنصرية، لا يمكن ان تخدم، أو ان تتحالف، الاّ مع الاحتكارات الدولية، التي تؤلف المركز العدواني متعدّد الجانب للاتحاد السوفياتي. ان الاحتكارات الدولية كانت معادية ومنافسة لروسيا القيصرية؛ وكانت، بصورة خاصة، معادية، بضراوة، لثورة اكتوبر ١٩١٧ وللاتحاد السوفياتي. ربما يجدر القيام بعمل مضن على صعيد السياسة الدولية من اجل ازالة التوتر الدولي، والحرب الباردة، وسباق التسلّح، ومن أجل حل الصراعات الاقليمية، الخ. ولكن هل يمكن القيام بذلك من طرف واحد؟ هل تراجعت الولايات المتحدة الاميركية عن التسلّح؟ عن التدخل في شؤون الدول الاخرى، وفي شؤون الاتحاد السوفياتي بالذات؟ عن تطوير ترسانة حلف شمال الاطلسي؟

بالنسبة الى الصراع الاقليمي الهامّ في الشرق الاوسط، هل تساهم الهجرة السوفياتية المكثّفة في السلام، وفي حل المشكلة؟ هل تمويل الولايات المتحدة الاميركية لهذه الهجرة هو مؤشر الى رغبة الادارة الاميركية في السلام؟ الى موقف غير متحيّز كوسيط أساسي في عملية السلام؟ بشكل عام، هل تسير الامور على ما يرام، سواء بالنسبة الى السلام الدولي، أم الى السلام في الشرق الاوسط؟ لا نعتقد بأن الادارة السوفياتية ترى ذلك فعلاً.

على الأغلب، ان التغيير الذي طرأ، ويطرأ، على موقف الادارة السوفياتية من السلام في الشرق الاوسط عموماً، ومن القضية الفلسطينية خصوصاً، هو طارىء، لأسباب عديدة، منها ما يتعلق بأمن الاتحاد السوفياتي، الذي يتناقض مع توسّعية متناقضة بجوهرها مع مصالح الاتحاد السوفياتي لدولة في المنطقة العربية، ومتحالفة استراتيجياً ـ ومن الجملة في مجال «حرب النجوم» ـ مع الادارة الاميركية؛ ومنها ما يتمثّل بالعلاقات متعددة البعد، الانسانية والسياسية والاقتصادية مع بلدان المنطقة العربية وشعوبها؛ ومنها بكون المضمون التوسّعي للمخططات الصهيونية، المدعومة بالادارة الاميركية، هي ليست فقط غير منطقية، وانما، أيضاً، غير قابلة للتحقيق عملياً. مثلاً، يتطلب سحق الانتفاضة ابادة شبه كاملة للعنصر الفلسطيني، وربما يتطلب حروب اجتياح من النوع الذي كان يخطط له وزير الدفاع السابق، اريئيل شارون، في العام ١٩٨٢. هل يتمّ مثل ذلك بسهولة، ودون عقابيل على الصعيد الدولي، وعلى صعيد الرأي العام الاميركي، وحتى الاسرائيلي؟ حتى الآن، ان سياسة البطش هي السائدة في بؤرة التوتر، في لبنان وفي الاراضي المحتلة؛ والادارتان،